ثورة على الأخلاق

للأستاذ علي صرطاوي

إلى الأخ محمود بواسطة الأستاذ الزيات

قرأ أصدقاؤك والمعجبون بأدبك فى الأقطار الشقيقة شكواك البليغة فى عدد الرسالة (٢٢٩) ، فعتبوا عليك ، وأسفوا أن تمرّ بسمائك سحابة صيف من مآسى الحياة فى ظرف من الظروف الأليمة التى يطيش فيها حلم الحليم ، فتحجب عن بصرك ذلك القبس الإلهىّ الذى كان يحبّبُ إليك أن تحترق كالشمعة لتنير الطريق إلى الذين لا يعرفون الفضيلة فى الدنيا ؛ وأن تتحمل كل ما فى الألم من مرارة وما فى الاضطهاد من معنى ، فى سبيل الأخلاق الفاضلة والذود عنها والدفاع عن حرمتها ، فتنقلب فى طرفة عين إلى خصم لدود يطعنها تلك الطعنات القاتلة ، فكنت كالذى أوشك أن يتم جداراً لاقى النكد فى بنائه ، فانقلب إليه يهدمه إلى وجه الأرض لأن حجراً وقع عليه

لا يجادلك فيما ذهبت إليه في شكواك إنسانٌ فى الدنيا ، ولا يوافقك على الأسباب التى ادعيتها علّة النجاح من له دين وتفكير إلا إذا كنت تريد أن يتدهور البشر إلى مستوى العجماوات حيث يعيشون للطعام والشراب ، وأن يتلاشى ذلك التراث الإنسانى الثمين الذى ورثته البشرية عن الأنبياء والمصلحين .

إن نجاح التاجر الذى يغش ويسرق ، والموظف الذى يتلون حسب الظروف ، والظالم الذى لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه ، لا يقوم دليلاً على ما ذهبت إليه ، ولا شأن للأخلاق فيه ، إذ ليس ذنب الماء العذب أن يزعم مريض أنه كريه المذاق ، ولا الشمس المشرقة أن يجادل فى رؤيتها أعمى . فالذنب ياسيدى الكريم هو ذنب المجتمع المريض الذى يُسَمّى الأشياء بغير أسمائها ، فيرى الجبل شجرة ، والحجرة كتاباً ، والجمرة تمرة . ولو كان لنا مجتمع تعيش فيه الصراحة والجرأة الأدبية ويشرق عليه نور الخلق الفاضل والتربية العملية الدينية الصحيحة ، لتضوّر أمثال هؤلاء جوعاً فيه

وزاع الدكتور عزام طعنك فى الأخلاق على النحو الذى قرأه الناس جميعاً ، فأسرع يكتب إلى صاحب الرسالة كلمته البليغة لتصل إليك فى العدد (٢٣٠) وظن القراء أن فيما أورده الدكتور من الآراء الصائبة ما يكفى لإرجاعك إلى الحق ، والرجوع إليه فضيلة ؛ وانتظروا أن يقرأوا ذلك فى العدد (٢٣١) وإذا بصديقك الزيات يقول إن المجلس الذى أبلغك فيه رأى الدكتور ، وكان حافلا بغيرك من رجال العلم والدين ، كانوا لك وعليه ، وأنك ظللت صامتاً ولم تحر جواباً

لقد أعجبنى صمتك ، لأن السكوت دليل على التسليم ، ولكننى لم أرضَ أن يزعم أن مجلسك كان حافلاً برجال العلم والأدب والدين ، ويقول على لسانهم بأن السبيل (القاصدة إذن أن نطبّ لهذه الحال فيما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع ، وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين : إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة بقوة الأديان والسلطان والتربية ، وذلك ما عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « عليكم بالجادّة ودعوا البنيّات » وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يرافقْ تقلب العصر وتطور المجتمع . فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضى ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع فى الإمكان وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة ، وتعليل ذلك لا يعزب عنك فلا حاجة إلى تقريره . وأما الوسيلة الأخرى فهى على ما يرون مظنة التوفيق فى الإصلاح الجديد)

يزعم أصدقاؤك أن إلزام الناس طريق الفضائل عن طريق الأديان والسلطان والتربية (خيال نبيل لا يقع فى الإمكان ، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة) ويؤكدون أن الماضى قد سجل ذلك ، وأن الحاضر قد دلّل عليه ...

أما السلطان فأوافقهم على ذلك إذ :

لاترجع الأنفس عن غيها   مالم يكن منها لها زاجر

وأما الأديان ، فأى ماض قد سجل ذلك ؟ هل قرأ أصدقاؤك التاريخ العربى قبل الإسلام وبعده ؟ من هم أولئك الذين كانوا يأكلون الدم والميتة ، ويئدون البنات ، ويتزوج العشرة منهم امرأة واحدة ؟ ومن هم أولئك الذين صهرتهم حرارة الدين فأخرجت منهم أبا بكر وعمر ، ووطئت خيولهم الصين وسهول

archive.sakhrit.com

اللوار ، وملأوا الدنيا والتاريخ عدلا ، وخاطب خليفتهم فى بغداد السماء بأن تمطر أنى تشاء فالخراج لهم ؟

إذا تعلم أفراد المجتمع الدين تعلماً عملياً صحيحاً ، وساروا على صراطه المستقيم ، فسير أن يعيش بين أفراده مثل من ذكرهم صديقك الزيات . فعلة العلل أننا لا نعرف الناحية العملية من الدين ... وهـذا ما كان سبباً فى تهكم أحد رؤساء الجامعات الأوروبية على دروس الأخلاق النظرية التى وجدها فى أحد برامج بعض المدارس العربية العالية ... إذ قال بأن الشرقيين لا يزالون فى الضلال يعمهون حين يظنون أن فى المستطاع تكوين الخلق الفاضل بعيداً عن الناحية العملية . وأما الحاضر الذى دلل على ضعف الدين ، فهو حاضر لا يمت إلى الدين بشىء

والإصلاح الجديد الذى يراه أصدقاؤك يجلب على المجتمع الدمار والبؤس والفوضى التى يئن تحتها المجتمع الأوربي فى مظاهر مدنية النار والحديد

ويرى أصدقاؤك فى صلف الانجليزى المزة ، وفى طموح الايطالى الرجولة ، وفى طمع الفرنسى الحياة ، وفى صراحة الألمانى الهيبة ، وفى استقلال الأمريكى الفوز ، ويرون فى قناعة العربى الاهمال ، وفى زهده الحرمان ، وفى مداراته الذل ، وفى توكله العجز . ولست أظنهم ينصفون الحقيقة فى هذا الرأى ، فقياس الفضيلة هو مقدار الناحية العملية الصالحة منها ، وحسب أصدقائك أن يقارنوا بين فضائل من ذكروا ، وبين فضائل العربى وهو قريب من عهد الرسالة ، وهى منتزعة من صميم الدين ، والتى لا تمت بصلة إلى الأسماء التى تطلق عليها الآن ، وهو على أبواب مدينة حمص حينما هاجمها الروم للمرة الثانية ، فتدفع تلك الفضـائل العربى أن يعيد لأهل المدينة الجزية التى أخذها منهم ، فيرفضون أخذها ويدفعون الروم بكل ما يملكون . والأمثلة كثيرة ، وثقافتك الواسعة وعروبتك الصادقة فى غير ما حاجة إلى إقامة دليـل

وأما الربا فيريدون ألا يظل فى عصر الاقتصـاد رذيلة ، وحجتهم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه ، وأن ريع الأموال التى كانت تضيع على المسلمين فى البنوك ، لو صرفت على طرق الاصلاح ووجوه البر لما بقى أجنبى فى أرضهم ولما ظل تحت سمائهم فقير . والواقع لا يدل على ذلك أبداً ، فلقد حرم الدين الربا لحكمة لا نستطيع بعقولنا المادية المحدودة إدراكها . ويجب أن يبقى كذلك عملاً بأوامر الدين . وأما استعباد الشرق عن طريق البنوك ، فمسألة فيها نظر وليست قضية مسلمة ، ودليل ذلك أن الانجليز كانوا يطمعون فى مصر منذ سنة ١٨٤٥ . ويقرأ ذلك من يشاء فى رحلة الاسكندر وليم كنج لاك Alexander William King Lake فى بلاد الشرق الأدنى فى السنة المذكورة التى سماها (يوثين) Eothen ، حيث تنبأ وهو أمام أبى الهول باحتلالهم مصر قبل أن تشق قناة السويس . وأما طرق الاصلاح ووجوه البر ، فلو صرفت عليها الزكاة التى فرضها الدين لما بقى فقير بين المسلمين

وبعد فسيظل الخلق الفاضل عدة النجاح ما دام هنالك دين فى الدنيا والسلام عليك .

« جنين » **على صرطاوى**

لسان العرب

لابن منظور الافريقى المصرى

يشرف على تصحيحه ومراجعته اللغوى الكبير

الأستاذ الشيخ مصطفى عنانى بك

المفتش الأول للعلوم العربية بالأزهر والمعاهد الدينية

تم منه ثلاثة أجزاء وسيظهر الرابع قريباً ويدفع ثمنه مقدماً ١٠ قروش صاغاً وثمن كل جزء يتم ١٥ قرشاً وأجرة البريد عن كل جزء ٢٠ مليماً

يطلب من مطبعة الصاوى بعطفة الشوشترى بتلاقى شارعى الأزهر والخليج المصرى ، ومن مكتبة المليباوى بشارع فاروق الأول ، ومن مكتب الأستاذ محمد حسنى الخطاط بميدان العتبة بمصر

obeikandl.com